مذهب « السمبوليسم »

أو

الشعر الرمزى

للاستاذ خليل هنداوى

المدرسة الرومانتيكية والبرناسية . حقيقة المذهب الرمزي . الشعر الرمزى كالاحلام الشعر الرمزي والموسيقى . الشعر الرمزي والطبيعة

« شغل الرسالة - فى الايام الاخيرة - ما شغلها من (بول فاليري) . وكان من (مقبرته البحرية) مجال فسيح لبحث الوضوح والغموض فى الشعر ، وقد رأيت ان أوضح مذهب أصحاب المدرسة الرمزية بهذه المقالة ، ثم أتلوها بصور شعرية مختارة لهم » .

المدرسة الرومانتيكية والبرناسية

لم يكد يوارى جثمان الشاعر (هينو) فى الثرى حتى قامت مدرسة شعرية جديدة هى مدرسة (السمبوليسم) تنازع المدرسة (البرناسية) التى نازعت بدورها المدرسة (الرومانتيكية)

المدرسة الرومانتيكية جعلت موضوعها الفنى عواطف الشاعر نفسه ، فترى الواحد من شعرائها ينظم وينظم ، وهو يحدثك عن نفسه ، ويقصيك عن نفسه ، ليدنيك من نفسه ، يحسب نفسه العالم الأكبر الذى ينطوى على كل شىء ، فاذا أنّ واتحب عجب من الناس كيف لم يسمعوا أنينه ولم ينتحبوا ؟ ونراه اذا عرض عليك عواطفه رقق ديباجته ، وبهرج ألوانه ، وذوب نفسه ، لأن قاعدة هذه المدرسة توجب على الشاعر ان يكون متأثراً حتى يستطيع ان يؤثر فى غيره . فجاءت المدرسة البرناسية تنعى على أصحابها ضيق عقولهم وقلوبهم ، وتنتقد هذا المذهب الذى يتغنى على ضرب واحد لا يتغير له لحن ولا وتر ، ولا يسمع سامعه الا رنة ناقوس واحد . فكان جدار عنيف وكان نقد صارم ، فاضاع الشعر الرجدانى كثيراً من قيمته . وذهب زمان كان يوله الناس فيه هذا النوع من الشعر لأنه - كما يعتقد أصحابه - هو شعر الرقة ، وشعر الجمال . وقد لا يمكننا القول بأن أصحابه لم يحسوا الجمال ، وغاية الادب - مذ كان الادب - الحج الى مجالى الجمال . ولكن كثيرين ممن يتمثلون الهدف ويعينون موقع الهدف ، ويسعون بشوق ولهفة ، تسعى بهم اقدامهم وياللاسف الى غير الهدف . وللجمال طريق يختلف عن طريق هؤلاء القوم الذين اتخذوا طريقهم اليه : طريق الالحان المشوشة التى تخلقها العواطف الثائرة . ومتى كانت مقاييس العواطف ثابتة وموازينها صادقة ؟ وحقيقة هذه الالحان أنها تصور أهواء النفس ، ولا تصور شيئا من مجالى الفن والجمال . فكانت غاية المدرسة البرناسية أن تحول أذهان الناس عما اعتقدوا ، وأن تصف الجمال — بالفن الذى لا يتصل بمشاعر النفس ، ولا يتعلق بأهواء النفس ، ولكن هذه المدرسة لقيت فشلها ، وكان يقدر لها الفشل ، وهى لما تدرج من مهدها لولا ثبات أصحابها ، واحترام الاندية الأدبية لهم . وتحوير هؤلاء لبعض قواعدهم . فالفئة التى سئمت الحان النفس والوجدان سأما بعثها عليه المغالاة والتصنع ، رأيها أن يطلبوا منها أن تقطع كل صلة بينها وبين النفس ، ليتسنى لها أن تدرك الجمال بدورها كما أدركوه هم بدورهم . ولكنهم (أصحاب المدرسة البرناسية) لم يستطيعوا أن يقطعوا هذه الصلة ، لأن الانسان لا يستطيع أن يؤدى لغته الشعرية ، وأن يفهم اللغة الشعرية الا بنفسه . وهل يستطيع أحد أن يفهم ملاح التمثال دون أن يمر بهذه الملاح على نفسه التى تدرك منها ما تدرك . وقد يكون هذا الادراك هو الادراك الصحيح للتمثال وقد لا يكون ، ولكنه لم يكن — فى الحالين — الا تعبير النفس والعاطفة العميقة . ولذلك لم يحفل الناس بهذه المدرسة الا كحفلهم بشىء جديد له منظر جديد وروعة جديدة ولو كان هذا الشىء قبيحا . حتى اذا شبعوا من هذا المنظر الجديد والروعة الجديدة صدفوا بوجوههم عنه ، وعاودوا النظر فى الأفق البعيد ، لأنهم لم يقعوا على غايتهم فى هذا الأفق الخادع .

وهذا (بول فرلين) أحد شعراء هذه المدرسة لم يستطع أن يثابر على النظم وهو خارج عن نفسه ، فتمرد على احساسه وتمرد احساسه عليه ، فعاد يترجم عن مشاعره مضطراً ، لأنه لم يقدر على كبحها ، ولكن بأسلوب غير الأسلوب (الرومانتيكى) لأن فلسفته العميقة ساعدته على خلق فنه ولغته . فنزل الى أعماق النفس ، وهبط الى حيث تكمن المشاعر (١) (فى الخليات المظلمة) فأيقظها

(١) اشارة الى اتجاه المدرسة (الرمزية)

وأحياها وأدناها من عالم النور والحركة ، بعد ان كان يغمرها الظلام والسكون .

حقيقة المذهب الرمزى :

كان (ديكارت) يزعم خطأ يوم قال : بان لامستقر فى الدماغ الا للافكار الواضحة ، وخلا هذه الافكار لاتقوم الا المادة الجامدة التى لاتحتوى على شىء ، ولكن الفلسفة الحديثة نقضت هذا الرأى ، وأثبتت ان هنالك فى الدماغ مجموعة من احساسات وافكار وعواطف ، كلها واضحة بادية ، ووراء هذه المجموعة مجموعة عواطف نائمة ضعيفة ، حتى لكأنها تحيا بنصف شعور ! وهذه العواطف قد لايأبه بها الانسان الا اذا نزل اليها وتنبه لها ، ولكن الانسان — فى أغلب الاحيان — ينقاد لها على غير وعى ، ويقبل حكمها وهو جاهل مصدر الحكم ، ويتبع ما أغرته به وهو غافل عن مكمن هذا الاغراء .

مع هذه العواطف القائمة تحيا كل ميولنا الفنية ، واحساساتنا الشعرية ، ونحن لانكاد نشعر بها . فنقرأ المقطوعة الجميلة ، فتيقظ هذه الميول وتستفيق هذه الاحساسات ، فهوى جاء فى هذه المقطوعة كان سبب يقظتها ، فتهب وتظهر وتتوارى وترتخى وتشتد حسبما تشاء . فاذا عرجنا بهذا الهوى على المنطق والعقل تبدل الحكم وتغير الوضع ، وجاءت النتيجة : اما مؤيدة لهذا الهوى أو ذاهبة به . على أن هذه الاحساسات نفسها تبقى مبهمة ، متدثرة بشىء من الغموض والخفاء . لايدرك من أين بدأت وانتشرت ، والى أين تاهت وتلاشت .

أليس من واجب الشعر اذا ان يعبر عن هذا الهوى وهذا التناقض فى الاحساسات التى لاتحصى ؟ فاذا كان النثر الواضح المنطقى العقلى واجبه ان يعبر عن أفكار ظاهرة ، وعواطف بادية ، ومواضيع يراد تقسيمها الى فصول واجزاء لكى تدنيها من الافهام فان الشعر واجبه ان يعبر عن ذلك الاحساس الباطنى الذى يكمن الجمال فى حناياه .

إن (البرناسيين) وصفوا الجمال للجمال نفسه لا لغاية . وخدموا الفن للفن لا لحاجة . (ولكن الرمزيين) اعتبروا هذا المذهب وما قبله من المذاهب لايصلح منها شىء للشعر ، اذ — فى الامكان — تحويل ما رصفوه ونظموه الى نثر لايذهب بهجة معانيهم . وانصرفوا هم الى انفسهم ، وفى انفسهم تلك العوالم الواسعة الطافحة بالاحساسات المبهمة ، والاهواء المظلمة . لايرسل اليها أحد عقله حتى تتلاشى ، ولا تلين للتعابير الواضحة لأنها تذهب بمعناها . والاحساس الحقيق هو الاحساس الذى يختلج فى النفس دون أن يستطيع البيان أن يعبر عنه . ولهذه الاحساسات — كالصور الخيالية — رسائل لايمكن أن تقيدها الاغلال المنطقية ، والقيود الشعرية التقليدية . وهذه الرسائل التى تستعين — بالاحساس وحده — لتفهمها ، ولاتستعين بالدماغ الذى يفككها ويقضى على روعتها ، هذه الرسائل هى الشعر الحقيق وهذه الاحساسات الباطنة هى التى حدت (بالرمزيين) الى أن يعالجوا أعمق عالم مظلم فى أنفسنا ، ويعبروا عن هذا العالم تعبيراً شعريا .

أجمع علماء النفس على أن العقل الواعى ماهو الا مظهر حقير من مظاهر العقل الباطن الكامن فى (اللاشعور) وهذه العقيدة الفلسفية اضطرت الشعراء والفنانين الى الانطلاق من قيد العقل الذى لايحكم الا بوعيه ، ولا يخضع الا لحكمه ، وقالوا ان العقل الواعى بما فيه من أفكار واضحة انما وجد لكى نستخدمه فى حياتنا العملية والتفكيرية . ولم يوجد ليكون معبراً عن الحياة الشعرية ، إذ يجب على الشاعر أن يرتفع عن هذه العوالم المتجسدة ، ويخوض فى البقاع التى يتلاقى فيها النور بالظلمة ، والبيان بالغموض والشعور باللا شعور .

الشعر الرمزى والاحلام :

لانكاد نجهل نصيب الرؤى التى تطرقنا فى أحايين وأحايين . فثمت أحلام وأوهام وحوادث تبدو وتتوالى .لا يدفعها جهد ، ولا يربط مابينها منطق . تظهر كقوة خفية لايمكن تعليلها ولا تحليلها على أن بعض هذه الاحلام قد يجيء عذبا لذيذا يسعد النفس بما يحمل اليها من أوهام ، أليس من هذا البعض تلك الاحلام التى تغنى بها الشعراء لأنها مثلت لهم أطياف الاحباب ؟ فوددوا لو ان حياتهم الحقيقية تكون صورة من حلم لأن شعورهم الجائع النائم مثل لهم — بدورة — هذه الأحلام . ولكنه تمثيل ، ليس له تعليل

وهكذا قد تأتى الصور الشعرية مماثلة لهذه الصور الوهمية ، صورة أو صوراً تتتالى ، يحدوها وهم لا حقيقة له ، ولا يمازجها شيء من الشعور ؛ ولكنك تتلوها وتتلوها ؛ فيخيل اليك أنك دخلت فى عالم جديد تتلمس فيه هذه الصور ، فترى بعينيك مايجب أن يرى ، وتسمع بأذنيك ما يجب أن يسمع . وقد تستقرىء هذه الصور الوهمية ، وتحس مواضع التخلخل فيها والاضطراب المنطق والتباين العقلى ، وتشعر بأن المطابقة فيها مفقودة ، والتناسب معدوم . تستقرىء هذا كله وتستوضحه بأجمعه ، ثم يخيل اليك أن هذه الصور الوهمية انما هى حقيقة ، وأنها باعثة فيك ما تريد من أسباب الرضا والسرور .

وقف الشاعر (كارنور راميورد) شعره على التعبير عن مثل هذه الصور الوهمية ، قد ولد فى مدينة مكتظة بالمصانع تقلق آلاتها الراقدين والساهدين؛ وكان يرى — برغم ذلك — موطنا يستسلم فيه الى أحلامه التى تحمله الى عالم الغيب والذهول ، حتى أصبح يرى فى الحانة معبداً . وفى كثير من مقطوعاته كـ(سفينته الضالة) جاء بأفكار غامضة كل الغموض ، وتعابير مبهمة كل الابهام . لأن الشاعر يخلق لنفسه الحروف والكلمات التى يراها مؤتلفة مع نفسه ، ولكن فقدان التسلسل المنطق يرخى على المقطوعة سدول الغموض ، حتى لينتقل الابهام من الأفكار والمعانى الى الصور الشعرية ؛ وإذ ذاك يغدو القارىء شبيها بمتسدحرج أصابه دوار فى بصره شغله عن التأمل والتفكير .

الشعر الرمزى والموسيقى :

الموسيقى قبل كل شيء ! الموسيقى دائماً وأبداً

ليكن شعرك شيئاً يطير من النفس صاعدا الى سماوات أخرى .

(پول فرلين)

الفن الشعرى : — أنت تعلم ذلك التأثير الذى تثيره فى النفس الواعية تلك الألحان الشائعة ، لبحر يهدر ، أو لجدول يخر ، أو لنغمة تعلو من آلة موسيقية . فهذه الألحان لا تكلم العقل رأساً ، وانما تكلم — قبل عقلنا — احساساتنا . فيخيل الينا أننا منطلقون منعتقون ، ربما لم نتأثر بالعقل والمنطق . فتحملنا هذه الألحان ونحن كسالى هامدون ، الى عالم ملؤه الراحة والسكون .

وقد فهم الرمزيون هذه الوشائج النفسية العميقة فأعلنوا — وفى طليعتهم — « فرلين ، ورامبو ، وملارمى » أنهم سيتخذون من الكلمات ألحاناً موسيقية ، وأنهم سيعنون بوقعها قبل عنايتهم بمعانيها ! فكانت هذه الثورة ثورة متجهة للغة ، لأنها تهذبها وترققها وتجملها ، ولكنهم — كما أحسنوا فى مواطن كثيرة — قد كبوا فى مواطن كثيرة ، لأنهم استعملوا كلمات غريبة ليس لها معنى يميزها ، أو مبهم يسمها ، واستخدموا ألفاظاً مجهولة لا تدرك إلا فى معاجمهم الرمزية ، حتى دعاهم هذا الى الاستخفاف بقيمة الكلمة والنص عن معناها ، والالتفات الى وقع موسيقاها ؛ ولم نكن لننكر أن القوم أحسنوا كل الاحسان فى انعتاقهم من القواعد التقليدية ، وعروجهم بالشعر الى مرابع خصبة ندية . فاللغات لا تزال قاصرة ، لا تحدد كل كلمة مدلولها الذى وضعت من أجله . ولا تزال تضيق عن استيعاب ما يجود به عالم النفس الأكبر من الخواطر الكامنة . ولكن هذا القصور لا يحمل القادر على توسيع شقة الابهام . وترك الامر فوضى بين الأفهام ، فان فى استطاعة الشاعر أن يتخير الكلمة الواضح معناها ، والحسن موسيقاها ، وهو بعد ذلك لا يخسر من معناه ولا من مبناه شيئا .

فاذا تلونا مقاطيعهم فلنقلها كموسيق ، فانها قد تلذنا لو كنا خلقنا شعراء . وتولد فينا تأثيراً عميقا يحملنا — على غير وعى منا — إلى عالم يزداد وضوحا أو غموضا حسب بيان الشاعر .

الشعر الرمزى والطبيعة

التفت شعراء الرموز الى أنفسهم ، ولاحظوا دقائق الحياة الباطنة ونواحيها الغامضة ؛ ولم يعنوا كثيراً بالظواهر الخارجية نظروا إلى عمر الساعة الهاربة ، والفصل الغابر ، والزمن السائر ، ولجب الحياة العاملة ولا انتهاء لها ، والانحلال والتركيب اللذين لا ينتهيان ، فى هذه اللحظة وفى قلب هذه الحركة وصفوا صور المادة وشرائع الطبيعة الخفية ، قرأوا حقائق الاشياء كأنها تتلاشى بين تبدل المظاهر وبقاء أسبابها . والطبيعة ماهى الا صورة متحركة ورمز مستور مقيد محصور . ورأوا من جهة أخرى ان فهمنا للاشياء ما هو الا صورة من صور احساسنا ، فكأنها تحيا

البقية على صفحة ٣١٨